أثر العلم بمقاصد السور في فهم القرآن الكريم
في ضوء سرّ تكرار القصص
" قصة آدم عليه السلام أنموذجا "

د يونس عمر ملال

أستاذ الدعوة والثقافة الإسلامية – جامعة أم القرى – مكة المكرمة.

من ١٠٥ إلى ١٥٠

أثر العلم بمقاصد السور في فهم القرآن الكريم

في ضوء سرّ تكرار القصص" قصـــة آدم عليـــه الســـلام أنمـوذجـــا "

يونس عمر ملال

قسم الدعوة والثقافة الإسلامية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة.

البريد الإلكتروني: younes.noun@hotmail.com

الملخص :

مقاصد القرآن الكريم على ثلاثة مستويات، مقاصد الآيات، مقاصد السور، والمقاصد العامة للقرآن، وهذا البحث يرصد حديث العلماء عنها قديما وحديثا، ويركز الكلام عن مقاصد السور القرآنية، التي تأسست على علم المناسبات، وتطورت على يد نخبة من العلماء كالإمام عبد الحميد الفراهي، إلى نظام للقرآن العظيم تنتظم من خلاله عملية الفهم والتفسير.

ومن فوائد هذا النظام، ونتائج التفسير في إطار مقاصد السور القرآنية، فهم أسرار إعجاز القرآن الكريم، الذي تسلط هذه الدراسة عليه الأضواء من خلال توظيف مقاصد السور في فهم مقاصد التكرار في القصص القرآني.

وقد اتخذت الدراسة كأنموذج قصة آدم عليه السلام وعدوه إبليس عليه لعنة الله، لتبين إعجاز القرآن من خلال تكرار هذه القصة في سبع سور من القرآن، ولتخلص بعد التدبر إلى التفرد الذي تميز به مقطع من القصة في كل سورة، وأن التكرار يبين الإعجاز من خلال التناغم الكلي بين مقصد القصة ومحورها وأسلوبها، ومقصد السورة التي احتوتها ومحورها وأسلوبها، وذلك ما يجعلنا نعيد النظر في قول كثير من الباحثين بأن تكرار القصص غرضه التوكيد والتقرير ليس إلا، ونكتشف أبعادا جديدة لأسرار التكرار في القرآن عموما وفي القصص على وجه الخصوص.

الكلمات المفتاحية: أثر، العلم ، مقاصد ، السور ، القرآن الكريم ، الفهم ، القصص.

The Effect Of Knowledge

On The Purposes Of The Wall On Understanding The Holy Qur'an In Light Of The Mystery Of The Repetition Of Stories"The Story Of Adam, Peace Be Upon Him, Is A Model"

Yunus Omar Malal

Deartment Of advocacy Islamic، Umm Al-Qura University، Mecca, Saudi Arabia.

Email : younes.noun@hotmail.com

Abstract:

The purposes of the Noble Qur'an on three levels, the purposes of the verses, the purposes of the fence, and the general purposes of the Qur'an, This research monitors the scholars 'talk about it, past and present, and focuses on the purposes of the Quranic fence, which was founded on the science of occasions, and developed by a group of scholars such as Imam Abdul Hamid Al-Farahi, to a system of the Great Qur'an through which the process of understanding and interpretation organizes.

Among the benefits of this system, and the results of interpretation in the context of the intents of the Quranic surahs, are the understanding of the secrets of the miracle of the Holy Qur'an, which this study sheds light on by employing the intentions of the surahs to understand the intentions of repetition in Quranic stories.

The study took as a model for the story of Adam, peace be upon him and his enemy Satan, upon him, the curse of God, to show the miracle of the Qur'an by repeating this story in seven surahs of the Qur'an, and to find, after reflection, the uniqueness that characterized a section of the story in each surah, and that repetition shows miracles through harmony The total between the purpose of the story, its axis and its style, and the purpose of the surah that it contained, its axis and style, which makes us reconsider the opinion of many researchers that the repetition of stories is intended only to confirm and report, and we discover new dimensions of the secrets of repetition in the Qur'an in general and in the stories in particular.

Keywords: impact, science, intents, fence, Quran, understanding, stories.

مقدمة:

القرآن الكريم محور الحياة الإسلامية كلها، محور العلم والعمل فيها، فوجودها مرتبط بوجوده ودوامها مرتبط بخلوده، كما أن قيمتها رفعا وخفضا متصلة بحسن التعامل معه فهما وتنزيلا، فهو الكتاب الكريم الذي إذا سألته حاجتك أعطاك وزاد، وهو الكتاب المبين الذي يقدم المحجة البيضاء من غير رمز أو تشفير، وهو الكتاب المكنون الذي لا يمس معانيه إلا المطّهرون الذين طهروا قلوبهم من المعاصي وعقولهم من الخرافة وأجسادهم من النجاسة.

ولم يكن أحد أشد إدراكا لهذه المعاني من الرعيل الأول الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين، فما أشد ما كانت عنايتهم بالقرآن العظيم، ومن هنا كانت العلوم والمعارف الإسلامية جميعا مثلُ رحى قطبها وإشعاعها ونورها هو كتاب الله تعالى.

وألصق العلوم الإسلامية بكتاب الله تعالى: علوم القرآن.. إذ اعتنى العلماء بالقرآن بناء وجوهرا، شكلا ومضمونا، فاعتنوا برسمه وقراءته وسبل حفظه في الصدور وتدوينه في السطور، كما اعتنوا بفصاحة لفظه، وبديع نظمه، وإعجاز لسانه، وكذا ببيان حلاله وحرامه ووعلم قصصه وأمثاله وجدله.. ومن علوم القرآن ما يلامس قشره ومنها ما يغوص في لبه، فمن علوم القشر: علم تاريخ القرآن وعلم أسباب النزول وعلم المكي والمدني وغيرها .. ومن علوم اللب: علم تفسيره وعلم أحكامه وعلم قصصه وعلم أمثاله وعلم سياقه وعلم مناسباته وعلم أقسامه.. و"علم مقاصده".

ونحن نشاطر الأستاذ أحمد الريسوني [١] والشيخ طه جابر العلواني (ت ٢٠١٩م)[٢] في ملاحظمهما: أن العناية بالدراسات القرآنية لم تكن متساوية، ولم تكن دائما متطابقة مع ما لهذه العلوم من أهمية، بل منها علوم استوفت حقها أو كادت، وأخرى استوفت حقها وزادت، بينما بعضها لم يظهر إلا متأخرا، وبعضها ما يزال متعثرا، وهذا هو الشأن بالنسبة "لعلم مقاصد القرآن".

مع أن مقاصد القرآن علم من أنفس علوم القرآن وأكثرها بيانا لأسرار معانيه، وكشفا لسر إعجازه، ومن أجل وضع هذه الفكرة على محك البحث على مستويي "التصور والتصديق"، جاءت هذه الدراسة في مبحثين :

تناول المبحث الأول: علم مقاصد القرآن، ضمن خلاصة مركزة في مطالب اشتملت على مسائل، وتضمنت مقاصد التفسير التحليلي لآيات القرآن الكريم، والتعريف بالمقاصد العليا لكتاب الله تعالى، ، ثم مقاصد السور وجوها المتفرد، وروحها المتميز الآسر، وذلك تمهيدا لتناول موضوع القصص، وهو أيضا عند علماء القرآن علم ما يزال بكرا والبحث فيه هو مجال خصيب، غير أنني خصصت له مبحثا ثانيا ركزت فيه القول عن سر التكرار الملاحظ في سرديات القرآن الكريم لقصص الأنبياء خصوصا من خلال قصة آدم، مبينا التناغم الحاصل بين مقصد التكرار ومقصد السور، وانتقالا من التصور إلى التصديق، أخذت من قصة آدم مع عدوه إبليس أنموذجا تفصيليا، وبينت مقصد القصة وتفردها في الشكل والمضمون في كل سورة، وتناغمها مع مقصد السورة التي

---

١ ينظر : جهود الأمة في خدمة مقاصد القرآن، أحمد الريسوني، (ضمن أعمال المؤتمر العالمي الأول للباحثين في علوم القرآن: جهود الأمة في خدمة القرآن)، كلية الرباط المغرب، ص ٩٣٥.

٢ ينظر تفسير سورة الأنعام، طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة، جمهورية مصر العربية ٢٠٠٨م، ص١٢.

ذكرت فيها، ليتبين في الأخير أن التكرار ليس فقط لمجرد التأكيد والتقرير والتوضيح، كما يذهب إلى ذلك كثير من الباحثين، بل هو وجه عظيم من أوجه الإعجاز يثبت صدقية أن القرآن فعلا كلام الله الذي لا تقدر عليه الإنس والجن جميعا، حيث سنرى كيف تؤدي القصة بالضبط غرضها حيث هي، وحيث لا تؤدي ذات القصة في السورة الأخرى والموضع الآخر ذلك الغرض، كما وقد حللت هذا المعنى وخلصت إليه في نتائج الدراسة التي بين أيدينا.

المبحث الأول :

إطلالة مختصرة على علم مقاصد القرآن قديما وحديثا:

مقاصد القرآن . بالجملة والاختصار. انتقالا من الخاص إلى العام، على ثلاثة مراتب:

ـ مقاصد الآيات، مقاصد السور، والمقاصد العليا للقرآن ككل. وبين هذه المقاصد ارتباط قوي يجعلنا ننظر إلى القرآن الكريم كالكلمة الواحدة بتعبير الإمام ابن العربي(ت ٥٤٣هـ)[١]، أو ككائن حي له أطراف، فلا يمكن فهم مقاصد الأطراف ووظائفها، ما لم نفهم تكاملها، ولا نفهم تكاملها ما لم نتصور حقيقة الكائن ككل.

وبحكم الطبيعة المنهجية للموضوع الذي أكتب فيه، سأمر في هذا المبحث . باختصار ـ على مقاصد الآيات ثم مقاصد القرآن العامة، لأقف عند " مقاصد السور " إذ على ضوئها يتضح سر تكرار القصص في القرآن، لا سيما بعد الدراسة التحليلية المقارنة للأنموذج المختار: أعني قصة آدم وعدوه إبليس في القرآن الكريم.

المطلب الأول: مقاصد الآيات:

المراد بها المعاني التفصيلية المقصودة بالآيات القرآنية، وهي المطلوبة في التفسير التحليلي للقرآن الكريم، وسواء كان وقوف المفسر عند هذه المقاصد بشكل واع وصريح أو بشكل ضمني، يتضمنه تفسيره للآيات القرآنية، فإننا نقول: إن جل عمل المفسرين يصب في بيان مرامي أو مقاصد الآيات التفصيلية، أو هكذا ينبغي أن يكون.

---

١ ينظر: البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م ، ص ٣٤.

وقد أشار إلى هذه المسألة كثير من المفسرين في مقدمات تفسيرهم، ومنهم على سبيل المثال، الإمام البغوي رحمه الله (ت ٥١٦ هـ)، الذي وصف بعض مقاصد المفسير بقوله: " أمر فيه (= القرآن) وزجر، وبشر وأنذر، وذكر المواعظ ليتذكر، وقص عن أحوال الماضين ليعتبر، وضرب فيه الأمثال ليتدبر، ودل على آيات التوحيد ليتفكر، ولا حصول لهذه المقاصد إلا بدراية تفسيره"[١]، فتحصيل المقاصد إنما هي بدراية التفسير، فيدور التفسير مع المقاصد القرآنية حيث دارت، كما يفترض أن يكون.

لكن ما ينبغي ليس هو واقع الحال دائما ، من هنا وجدنا عند كثير من المفسرين أحيانا إغفالا لمقاصد القرآن عند تفسير آياته، وبسبب هذا الإغفال تنتج بعض الأخطاء ولعل من مظاهرها: تفسير الآيات أحيانا بنهج تجزيئي ينتزعها من السياق[٢]، لتدل على معنى سابق في ذهن المفسر، مع العلم بأن مراعاة سياق الآية ضمن السورة وتناغمها مع محورها، والانتباه إلى مقاصد القرآن العامة، سيطرد المعاني غير المرادة أو يبين عن مرجوحيتها، من أمثلة هذا النوع من التفسير ما ذكره الشيخ الغزالي حيث يقول:"بعض الناس بلغت به النظرة الجزئية حدا جعله يأخذ من صدر سورة براءة أن الإسلام دين هجوم.. وإذا سألتهم عن الدليل يجيبون بأنه قوله تعالى: "وقاتلوا المشركين كافة" ويقف ثم لا يكمل الآية "كما يقاتلونكم كافة" فأنت هنا ترد الهجوم الشامل بدفاع شامل .[٣]ولا شك وانتزاع جمل من سياق آيات القرآن ثم انتزاع الاستدلال

---

١ معالم التنزيل في تفسير القرآن، الإمام البغوي، دار إحياء التراث، بيروت لبنان، ط١، ج١، ص٤٥.

٢ ينظر: كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، مدارسة مع عمر عبيد حسنة، نهضة مصر، الجيزة، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٦م ، ص ٧٥.

٣ المرجع نفسه: ص٧٥.

منها في غير مرادها غلط شنيع قد يتعدى القصور العلمي إلى الأهواء وأمراض النفوس، وهو يقينا إعراض عن مقاصد الآيات..

ولعل من أمثلة هذا النوع من الانحراف أيضا: الاستطرادات العلمية في تفسير الآيات الكونية في القرآن التي تعزل الآية القرآنية عن مقطعها وتفسيرات السلف لها، لتعبر عن نظرية علمية ما كالذي انتهجه الشيخ طنطاوي جوهري رحمه الله (ت ١٩٤٠م) في تفسيره الجواهر في تفسير القرآن، وهو منهج لا ينسجم مع مقصد القرآن ككتاب هداية ليس من طبيعته أو مغزى آياته، التعليم الكوني المتخصص الذي أوكله الله إلى العقل البشري والبحث العلمي، ولا ينسجم أيضا مع القرآن كإمام مهيمن، لا كمأموم تابع يراد منه تأكيد معاني ناجزة في عقل المفسر استفادها من الكشوفات العلمية.

ولم تسلم ميادين أخرى من هذه الغفلة، فالاستطراد النحوي اللغوي والفقهي المذهبي والعقدي الكلامي والإخباري الإسرائيلي وغيرها.. جميعا كرست مثل هذا الانحراف عن مقاصد القرآن حين قلبت الأصل إلى فرع والوسيلة إلى غاية وحين لم تضبط التفسير بإطار من مقاصد القرآن، يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في بيان هذا المعنى ما ملخصه: دروس التفسير التي أخذناها في الأزهر كانت تتحول إلى دروس في البلاغة واللغة إذا كان التفسير لغويا أو إلى دروس في الفقه المقارن إذا كان التفسير فقهيا وكذلك الأمر مع التفسير الكلامي وغيره، ورحم الله من علمونا هذه العلوم وهم يفسرون القرآن، وما أريد بيانه هو أن هذه العلوم وسائل خادمة للمعنى ولا يجوز أن تنقلب الوسائل إلى غايات فبعد شرح ما هو مطلوب منها نلتزم القصد من تفسير القرآن وهو فتح القلوب بالمعاني النائية للوحي الأعلى، وكيف يهدي الله الناس إلى الحق،

فيما شرع من أحكام وبث في الكون من سنن الائتلاف والاختلاف والحب والكره والتقوى والفجور وغير ذلك..[١]

التفسير المطلوب للآيات إذن هو التفسير الذي يدور مع مقاصد القرآن الكريم حيث دارت من تلمس سبل الإرشاد والهداية والإستقامة والإصلاح مع التزام السياق واحترام جو السورة وروحها، وعدم اجتزاء الآيات وتحويل علوم الوسائل لبلوغ المعاني إلى غايات مقصودة لذاتها، فمقصود الآيات يعرف من خلال مقاصد السور ومن خلال المقصود العام للقرآن الكريم .

المطلب الثاني: مقاصد القرآن العليا

وهي مقاصد القرآن العامة، الكلية والجامعة، وهي مستنبطة وملاحظة في عامة سور القرآن وأجزائه، تلك هي "أغراض القرآن العليا الحاصلة من مجموع أحكامه وحكمه"..[٢] فالقرآن الكريم يبني الحياة الإنسانية بطريقين: الأول إشاعة الحقائق والقيم وغرسها في صدور الناس بشتى الأساليب، رغبة ورهبة وأمثالا وقصصا وبراهين وحججا وهذه حكم القرآن، والثاني بيان الحسن والقبح والحلال والحرام والطيبات والخبائث وهذه أحكام القرآن، ومن جملة الأحكام والحكم نُحَصِّلُ المقاصد العليا للقرآن. وهذه وإن تكلم فيها علماء القرآن – فقد تأخروا في ذلك، على الرغم من أهميتها الكبرى، فكان هذا التأخر مدخلا لانحرافات كثيرة وتفويتا لخير عميم.

المسألة الأولى: المقاصد العليا للقرآن عند العلماء القدامى

---

١ ينظر : تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، الطبعة الرابعة،١٤١٦هـ . ١٩٩٦م ،ص ١٢٣-١٢٥

٢ ينظر: مقاصد المقاصد الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة: الدكتور أحمد الريسوني، الشركة العربية للأبحاث والنشر، بيروت لبنان، ص ١١.

ولعل أبا حامد الغزالي هو أول من تحدث عنها من العلماء القدامى بوضوح وتكامل في كتابه "جواهر القرآن" وكذا في كتابه " إحياء علوم الدين" فقسمها في الجواهر إلى: ثلاثة ملمات وثلاثة متمات، الملمات هي: التعريف بالله، والتعريف بصراطه المستقيم، والتعريف بالمصير إليه يوم القيامة، أما المتمات فهي: التعريف بالإكرام والإنعام على المؤمنين الطائعين ترغيبا، والتعريف بحال أضدادهم من الكافرين ترهيبا، و بيان ما عليه أهل الحق بالحجج والبراهين، وفضح ما عليه الجاحدون من الجهالة والعمى، وكيفية التزود للدار الآخرة بالعبادة والعمل الصالح.[١] وقد لاحظ بعض الباحثين أن الغزالي طغت عليه المسحة الصوفية في شرحه لمقاصد القرآن، وهذا أمر لا غرابة فيه بالنظر إلى الميول الروحية لحجة الإسلام..[٢]

وحصر الإمام برهان الدين البقاعي مقاصد القرآن جميعا في ثلاثة معاني أيضا: بيان العقائد والأحكام والقصص.[٣]

والعز بين عبد السلام عرفها بالقول: "معظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها" [٤]فجعل مقاصد القرآن في جلب المصالح ودفع المفاسد من قبل الأمر والزجر، وهو أيضا من غلبة الاهتمام الفقهي عليه ولا غرابة، فذلك من غلبة التخصص والميول العلمي وإلا فمقاصد القرآن أعم من مقاصد الأحكام.

---

١ ينظر: جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م ، ص٢٤

٢ جهود المسلمين في خدمة مقاصد القرآن، مرجع سابق، ص٩٤١

٣ نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، الدار السلفية للطباعة والنشر، ج٨ ص٥٩٣

٤قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٠م، ج١، ص١٠

المسألة الثانية: مقاصد القرآن عند العلماء المعاصرين

وجدنا اهتماما متزايدا بمقاصد القرآن عند المعاصرين، فالعلامة رشيد رضا في تفسيره المشهور باسم " تفسير المنار" وكذا في كتابه " الوحي المحمدي" جعل المقاصد العامة للقرآن تدور حول الرقي بالإنسان حسيا وروحيا وهي عنده عشرة مقاصد أذكر أهمها في عناوين طلبا للاختصار: الهداية للدين الحق في الإيمان بالله والآخرة والعمل الصالح . التعريف بالرسل ووظائفهم . التعريف بالإسلام من جهة أنه دين الفطرة والعقل والحجة والحكمة والضمير والتحرر . الإصلاح الاجتماعي بما يحقق وحدة الدين والأمم والقيم والتشريع.. . وغير ذلك من المقاصد[١].. والمسحة الاجتماعية الإصلاحية عنده ظاهرة بلا خفاء.

ولم يبعد عنه كثيرا الشيخ الطاهر بن عاشور في المقدمة الرابعة من المقدمات العشر لتفسيره المشهور باسم التحرير والتنوير. لا في الإجمال ولا في التفصيل . حين ذكر أن المقاصد العليا للقرآن إجمالا هي: إصلاح الأحوال الفردية والجماعية والعمرانية. وجعلها على التفصيل ثمانية، أذكر منها: إصلاح المعتقد، تهذيب الأخلاق، التشريع، العبرة من التاريخ، الإعجاز.. وغيرها.[٢]

وأما الشيخ عبد العظيم الزرقاني في مناهل العرفان فقد حصر مقاصد القرآن في ثلاثة: الهداية والتعبد والإعجاز [٣]

---

١ ينظر : تفسير القرآن الحكيم، المشهور باسم: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت ج١، ص١٧١-٢٣٥ وكذا ينظر: الوحي المحمدي، ثبوت النبوة بالقرآن، رشيد رضا، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٤٠٦ هـ، ص ١٩١وما بعدها.

٢ ينظر: التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م، ج١ ص٣٨ وما بعدها.

٣ ينظر : مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢م ، ج١ ص١٠٠ وما بعدها.

ولعل الشيخ طه جابر العلواني قد استفاد من ذلك كله حين جمع مقاصد القرآن جميعا في : ثلاثيته الشهيرة : التوحيد والتزكية والعمران.[١]

وللشيخ محمد الغزالي كتاب فريد في بابه هو: "محاور القرآن الخمسة" ولو سمي مقاصد القرآن الخمسة لكان حقيقا بذلك، فقد جمع مقاصد القرآن في خمسة محاور: الله الواحد، والكون الدال على خالقه، والقصص القرآني ،البعث والجزاء ،التربية والتشريع.[٢]

وأختم هذا التلخيص بمقاصد القرآن عند الأستاذ أحمد الريسوني الذي يرى بأن مقاصد القرآن منها ما هو منصوص عليه، ومنها ما هو مستنبط أو مستقرأ، فذكر منها: مقصد الهداية الدينية والدنيوية للعباد، والتزكية وتعليم الحكمة، ومقصد السعادة والرحمة، ومقصد إقامة الحق والعدل ..وغيرها[٣]

المسألة الثالثة: ملاحظة للتأمل

ما لاحظته من خلال تتبعي لحركة التأليف في الدراسات القرآنية أن كثيرا من العلماء أصحاب الخبرة والباع الطويل والقدم الراسخة في علوم الشريعة قد عادوا بقوة للبحث في مقاصد القرآن، وذلك لإحساسهم أحيانا بأن العلوم الإسلامية تحتاج إلى مراجعة عميقة وإلى إعادة ربط بالمقاصد العليا للقرآن وإعادة تأسيس كثير من قضاياها على أساس القرآن، لأن كثيرا من مسائلها المنهجية والموضوعية ـ حسب خبرتهم بالتراث الإسلامي ـ قد صيغ من خارج

---

١ ينظر : تطور المقاصد عند العلماء المعاصرين، مدارسة مع طه جابر العلواني، رقية العلواني ، ص٩ وما بعدها.

٢ ينظر للتوسع والاستزادة كتاب: المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، دار القلم ،دمشق، الطبعة الثالثة،٢٠٠٠م.

٣ ينظر: مقاصد المقاصد (الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة)، الأستاذ أحمد الريسوني، ص٢٥وما بعدها.

دائرة القرآن إما بتأثير من المنطق اليوناني أو البيئة الاجتماعية والعقلية السائدة وقت تدوين العلوم، أو المعارف الشائعة في عصر التدوين، وغير ذلك.. ثم استُصحبت معاني القرآن على سبيل الاستظهار لا على سبيل الافتقار للهدي القرآني . على حد تعبير الإمام الشاطبي في الموافقات . وقد صرح بعضهم بشكل لا يخلو من بعض الأسى والحزن في الشعور عن ابتعاد الاجتهاد خصوصا والعقل المسلم عموما عن القرآن في عصور كثيرة، كما لمّح آخرون لهذا الأمر جاعلين الإحساس بتلك المرارة بينهم وبين الله، وأقصد تحديدا مواقف كل من الشيخ محمد الغزالي والشيخ طه جابر العلواني والأستاذ أحمد الريسوني من المعاصرين، وهو موقف شبيه بموقف شيخ الإسلام ابن تيمية والإمامين ابن العربي في القرن السادس والبقاعي في القرن التاسع فتأمل.

المطلب الثالث: مقاصد السور القرآنية

مقاصد السور القرآنية علم قائم على علم المناسبات بين الآيات وأساسه التوقيف في ترتيب الآيات والسور، وهو الإدراك الكلي لنظام السورة وحسن التناغم والتشاكل والترابط في النظم القرآني للسورة.[١] وبالمحصلة فإن إدراك الموضوع الرئيس والمحور الأساس والهدف الكبير في السورة القرآنية سيؤدي إلى فهم الترابط بين الآيات وإلى فهم سر اختيار الأساليب ومن ثم: حسن تأويلها، ومعرفة كمالها وإدراك إعجازها.

ولأن هذا العلم دقيق وصعب، لم يخض بحره إلا قلة من العلماء قال الإمام الزركشي: قد قل اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته" [٢]وقال كذلك " وهذا النوع

---

١ ينظر : فصل أهمية علم المناسبات للتفسير الموضوعي للقرآن الكريم، ضمن أطروحتنا للدكتوراه: منهج الشيخ محمد الغزالي في تعامله مع القرآن ص: ٥٤٧ .

٢ البرهان في علوم القرآن، الإمام بدر الدين الزركشي، ص٣٦

يهمله بعض المفسرين أو كثير منهم وفوائده غزيرة" [١]وعن هذا العلم قال القاضي أبو بكر بن العربي:" ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة متسقة المعاني منتظمة المباني علم عظيم لم يتعرض له إلا عالم واحد عمل فيه سورة البقرة، ثم فتح الله عز وجل لنا فيه، فلما لم نجد له حملة ورأينا الخلق بأوصاف البطلة، ختمنا عليه وجعلناه بيننا وبين الله ورددناه إليه"[٢] يعلق الأستاذ الريسوني على هذه الكلمة بالقول: "هذه الواقعة تدعو إلى الاستغراب والدهشة بقدر ما تدعو إلى الأسى والحسرة فقد فاتنا فتح قرآني رائد كان سينطلق ويتواصل منذ القرن السادس الهجري لكنه دفن مع صاحبه أو قبل صاحبه".[٣]

ومن العلماء الذين برزوا في هذا الفن قديما ويمكن استثمار جهودهم الإمام برهان الدين البقاعي (ت٨٨٥هـ) صاحب كتاب: "مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور" الذي يقول فيه: "من حقق المقصود منها عرف تناسب آيها وقصصها وجميع أجزائها.. فإن كل سورة لها مقصد واحد، يدار عليه أولها وآخرها، ويستدل عليه فيها، فتُرَتَّبُ المقدمات الدالة عليه على أتقن وجه وأبدع نهج.. فتكون السورة كالشجرة النضيرة العالية.. كل دائرة منها لها شعبة متصلة بما قبلها وشعبة ملتحمة بما بعدها، وآخر السورة قد وصل أولها..الخ"[٤]

---

١ المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٢ المصدر السابق ، ص٣٧.

٣ جهود الأمة في خدمة مقاصد القرآن، أحمد الريسوني، مرجع سابق، ص٩٣٥

٤ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة العارف، الرياض، السعودية، ج١ ص ١٤٩

ومن المعاصرين الشيخ محمد عبد الله دراز في كتابه النبأ العظيم حيث أدرك الترابط بين آي سورة البقرة وعبر عن ذلك بشكل بديع نادر فجعل مقدمتها في التعريف بشأن القرآن وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ حدا من الوضوح لا يتردد فيه قلب سليم، وإنما يعرض عنه من لا قلب له أو كان في قلبه مرض، وحدد المقصد الأول بدعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام، والمقصد الثاني بدعوة أهل الكتاب خاصة إلى ترك باطلهم والدخول في الدين الحق، والمقصد الثالث بعرض شرائع هذا الدين تفصيلا، والمقصد الرابع بذكر الوازع والنازع الديني الذي يحمل على ملازمة تلك الشرائع وينهى عن مخالفتها، أما الخاتمة فكانت في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم.[١]. وأسجل هنا موقفا للعلامة الشيخ محمد الغزالي: الذي تأثر بالشيخ دراز وكتب في مقدمة تفسيره المسمى "نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم" ما ملخصه: إنه حين رأى نحاج الشيخ دراز في ما عمله مع سورة البقرة وهي أطول سورة في القرآن رجا أن يوفقه الله تعالى للتفسير على ذلك النحو ثم كادت همته تخبو إذ خشي ألا يستطيع مواصلة الدرب ثم تشجع ومنّ الله عليه فأتم التفسير كله على ذلك النحو أعني: ملاحظة مقاصد السور ومحورها الذي تدور عليه وإبراز شخصيتها وإعطائها صورة شمسية[٢].. وعندي أن موقف الغزالي هذا خير من موقف ابن العربي الذي حرمنا ذلك العلم من أجل أن أبناء عصره لم يكترثوا أو لم يكونوا للعلم من الحملة وكانوا بأخلاق البطلة كما قال.

---

١ أنظر: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم،محمد عبد الله دراز، دار القلم القاهرة، الطبعة العاشرة، ٢٠٠٨م ، ص ١٩٦- ١٩٧ .

٢ نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي،دار الشروق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٠م ، ص٩.

ومن العلماء المعاصرين الذين كتبوا ألطافا رائعة في هذا المجال أيضا : العلامة عبد الحميد الفراهي (ت١٣٤٩هـ) كان الرجل أديبا مقتدرا وعالما نحريرا مشاركا في جملة من علوم الشرع، وكان عارفا بالعبرانية، وقد اطلع على كتب اليهود والنصارى من أصولها وبلغات أصحابها، وأماط اللثام عن كثير من انحرافات اليهود وزيغهم.

وقد انقطع وتفرغ رحمه الله لتدبر القرآن ودراسته وقضى في ذلك عمره كله، وكان آخر مشروعاته العلمية تأليف تفسير للقرآن يبين فيه مدى الترابط في مناسبات الآي ونظام السور، سماه " نظام القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان" قضى معه عشرين سنة لكن المنية اختطفته قبل أن يتمه، فمات رحمه الله وفي صدره علوم جمة مضيئة، وقد كتب عنه العلامة سليمان الندوي في كتابه " إمعان في أقسام القرآن" ما هو أهله من مدح وثناء على علمه وواسع اطلاعه.[١]

المطلب الرابع: نظام القرآن وفوائده عند الإمام عبد الحميد الفراهي

قال الإمام الفراهي رحمه الله:" إن معرفة نظام القرآن من الضروريات لعلماء القرآن حتى يعلموا الناس .. فإنهم إن لم يفهموا واختلفوا، كيف يرشدون الناس؟ بل يشتد ضرر قيادتهم لأنفسهم ولجميع المسلمين .. وقد رأينا ذلك في أهل الكتاب فإنهم زاغوا عنه مع الادعاء بأنهم حافظوا عليه " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم" وكما قال المسيح عن علماء بني إسرائيل: "العميان قادة العميان"..اشتغل اليهود والنصارى بالعلوم التي هي وسائل إلى فهم كتبهم وأكثروا من التفسير .. ومع ذلك تراهم مختلفين غاية الاختلاف تكثر بهم

---

١ ينظر: نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي، تقديم سليمان الندوي، طبعة الدار الحميدية، ص ٣ وما بعدها.

الآراء.. والحق أن فهم كلام الله لا يمكن بدون معرفة النظام، وإنه السبيل الوحيد إلى فهمه".[١]

فهو يرى ـ رحمه الله ـ أن معرفة أسرار نظام القرآن تحد من كثرة الخلاف في التفسير، إذ العلم بنظام القرآن سيؤدي إلى طرد الفهوم الخاطئة والتأويلات البعيدة التي لا تنسجم ، أوربما تتناقض، مع سياق نظام القرآن المحكم، كما يرى أن العلوم الكثيرة الخادمة للتفسير لا تغني عن معرفة النظام في الوصول إلى دقيق المعاني القرآنية أو صحيحها، ولذا فمعرفة النظام ضرورية للمفسر.

ويقول رحمه الله أيضا : " المعترفون بوجود التناسب، جعلوا التناسب علما شريفا، ولكن لم يجعلوه جزءا مهما من مفهوم القرآن، ولذلك بقي متروكا لإشكاله، وأما نحن فنقول: إن فهم القرآن محوَّل إليه، والوجوه الكثيرة في التأويل وعدم الاعتماد على تأويل صحيح، إنما نشأ من عدم المعرفة بالنظام، فإنه هو المعتمد في صحيح التأويل ورفع الشكوك والحيرة"[٢]

وفي هذا الكلام ملاحظة غاية في الأهمية، فالإمام الفراهي يرى أن علماء القرآن الذين أقروا بعلم المناسبات وهم جمهور علماء القرآن، فضلا عن الذين شككوا فيه أو ترددوا كالإمامين العز بن عبد السلام (ت: ١٢٦٢م) والشوكاني (ت: ١٨٣٤م)، وقفوا عند حد المدح والكلام النظري وربما التطبيقات الجزئية، ولم يجعلوه منهجا عاما ومعيارا ثابتا وحاكما على الفهم السليم للقرآن كما فهم هو وفعل في تفسيره.

١دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي، طبعة الدار الحميدية، ١٣٨٠هـ، ص ١٨ وما بعدها.

٢ المرجع نفسه، ص ٢٢.

ويشير تلميذ الفراهي: الدكتور محمد عناية الله السبحاني في كتابه "إمعان النظر في نظام الآي والسور" إلى جملة من فوائد التمعن في نظام القرآن وتتبع دقائقه، التي لا تحصل بغير ذلك، نلخص بعضا منها في نقاط:

. اكتشاف مرامي الآيات ومقاصد السور وفحوى الكلام وملابساته، ومن قطع الكلام عن نظامه تعذر عليه الوصول إلى مرامي الآيات.

. يصل تتبع نظام القرآن بالمفسر إلى اكتشاف الصحيح من التأويل عند ورود الخلاف والاشتباه وتوارد الشبهات.

. يبين نظام القرآن عن أحد أسرار إعجازه، فالنظام لا يحد من المعنى كما قد يتوهم بل يطرد المعاني الفاسدة، أما المعاني الصحيحة فإن إدراك النظام يجعلها تنفجر أمام المفسر في بحر لا يعرف قاعه ولا تنفد كنوزه.

ـ يقف المفسر من خلال معرفة نظام القرآن على أسرار التكرار في القرآن وفوائده، ومن لا يقف على أسرار نظام القرآن لا يكاد يفهم أسرار التكرار ولا يفرق بين موضع وآخر.

ـ من خلال الوقوف على دقيق نظام القرآن تتكشف وجوه جديدة للبلاغة القرآنية التي أعجزت أئمة البيان العربي.

ـ رعاية النظام في القرآن تورث الثقة بالمعاني المتوصل إليها وتورث برد اليقين.

. يمكّن النظام من فهم أسباب النزول، وكثير من الأسباب تخضع للنظام وليس العكس.[١]

وهناك فوائد أخرى كثيرة لنظام القرآن لعلنا نفردها ببحث مستقل لاحقا بحول الله.

---

١ ينظر: إمعان النظر في نظام الآي والسور، محمد عناية الله السبحاني، دار عمار، الأردن، ص ١٠٥، ١٠٦.

بيد أنني في هذه المقالة العلمية لا أتغيا الحديث عن مفهوم النظام وأسسه ونتائجه عند العلامة عبد الحميد الفراهي أو غيره – وقد بينت ذلك في المقدمة – وإنما أود اعتبار ما ذكره الإمام الفراهي من قبيل التصور المتعلق بمقاصد السور والذي يحتاج إلى تصديق أو من قبيل النظرية والدعوى التي يثبتها البرهان العملي ، وقديما قيل بالمثال يتضح المقال.

المبحث الثاني:

سر مقاصد" تكرار القصص" في ضوء قصة آدم مع عدوه إبليس

التكرار في القرآن لا يقتصر على القصص فحسب بل يتعداه إلى غيره، وكثير من مواضع التكرار أخفق بعض المفسرين في فهمها، وكثير منهم يظن أنه تكرار للتوكيد والتقرير ليس إلا، وفي هذا ما فيه من بعد عن التأويل الصحيح، والذوق البلاغي الرفيع، لرسالة القرآن وهدايته، وهذا الموضوع شاسع، والقصد هنا الاقتصار على أحد الموضوعات التي شملها التكرار، وهي قصص القرآن، مجسدا في شطر من قصة آدم مع عدوه ابليس ليظهر مقصد المكرار في القصص وسره.

المطلب الأول: سر تكرار القصص ومقصده

ولعل أكثر التكرار يلاحَظ في القصص القرآني، وهذا أيضا لا يمكن أن نوفيه حقه، ولكن أمامنا دعوى مرتبطة بمقاصد السور وهي: أن النظر في ما سيقت له السورة من المقاصد يفيدنا في فهمٍ للقرآن أصوب وأقرب إلى تذوق بلاغته وإدراك سر إعجازه ، فكيف نتحقق منها؟ لأجل ذلك اخترنا كأنموذج تطبيقي : قصة آدم مع عدوه إبليس في القرآن الكريم، لا سيما وأن الباحث محمد عناية الله السبحاني قد قدم إشارات غاية في الدقة والإحكام في هذا الموضوع، تأسيا بشيخه عبد الحميد الفراهي أو تأسيا به، أوسعناها شرحا وزيادة مقتصرين على الشواهد القرآنية، آملا أن أفعل ذلك مع قصة إبراهيم أيضا في مقالة علمية مستقبلية، ولمن أراد أن يستزيد تبحرا وتوسعا أن يرجع إلى كتاب الله وليتدبره فإنه لا ينضب.

أقول: من أسرار ملاحظة النظام في القرآن أن نرى سورة واحدة تجمع بين قصص مختلفة، بحيث يعمها لون واحد وطابع واحد وأسلوب واحد وغرض واحد وكأنما هي أحداث واحدة متكاملة متزامنة وذلك على الرغم مما يفصل

بينها في الزمان والمكان والأشخاص من فترات هائلة وقرون متطاولة وأماكن متباعدة متنوعة، مثل ما ورد في سورة الأعراف أو سورة الشعراء أو سورة القمر أو غيرها، ومن قصص القرآن ما نجد فيه قصة واحدة تتكرر عدة مرات في سور متعددة بأساليب منوعة، وألوان متميزة كقصة آدم وإبراهيم وموسى وغيرها.

وهذا الأسلوب القرآني المعجز . سواء كان في شكل قصة واحدة متنوعة الأسلوب متميزة الألوان مفرقة على عدد من السور، أو كان في شكل قصص مختلفة متعددة بحيث يعمها لون واحد وغرض واحد ضمن سورة واحدة . يدل فعلا على أن في القرآن نظاما محكما ودقيقا وبديعا وأن في السورة مقصدا ومحورا وموضوعا رئيسا، يدل عليه أسلوب القصة وغرضها، ليكشف ذلك كله عن سر من أسرار إعجاز القرآن، فهل يمكن استخلاص هده المعاني الدقيقة من النموذج المختار: قصة آدم وإبليس؟.

المطلب الثاني: مقاصد التكرار وأسراره في قصة آدم وعدوه إبليس

قصة آدم وإبليس أنموذج من شكل القصة الواحدة في سور متعددة جاءت في سبعة مواضع من القرآن في سبع سور مختلفات، ولكنها تحمل في كل سورة لونا متفردا وطبيعة متميزة، فالقصة هي هي، ولكنها تأتي في هذا الموضع من السورة بإيحاءات ومعان وقيم تختلف عنها في الموضع الآخر، وذلك في تناغم تام مع جو السورة التي ذكرت فيها ومحورها ونظامها البديع أي في تناغم تام مع مقصد السورة، وسأتناول ذلك في سبعة مسائل بمنهجية تبدأ بالتدبر ثم تذكر الخلاصات كالآتي:

المسألة الأولى: تفرد القصة في سورة البقرة: التدبر والخلاصة

أولا: التدبر

استهلت قصة آدم في سورة البقرة بهذه الآيات: " وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون"[١]

هذا المقطع من قصة آدم لا يوجد في أي سورة أخرى من السور التي ذكرت فيها القصة غير سورة البقرة، ولا يوجد ما يشبهه، وهذا يدفعنا إلى التساؤل : ما سر هذا التفرد والاختصاص في هذه السورة؟

وحين نتأمل في معنى هذا المقطع ثم في الجو من المعاني والأساليب والسياقات الذي يحيط به في سورة البقرة ، نجد أن مضمون هذا المقطع له تناسب دقيق يربطه بجو السورة، إذ التأمل يكشف لنا أن سبب أمر الله الملائكة بالسجود لآدم هو ما امتاز به من فضيلة العلم والقابلية للتعلم واكتساب المعرفة(علمه الأسماء كلها)، فبالعلم اقتنعوا بأن آدم جدير بخلافة الله في الأرض وجدير بالسجود له تكريما(لا علم لنا إلا ما علمتنا).. والترابط واضح في الآيات بين العلم والاستخلاف، فالعلم هو العمدة والأساس الذي يؤهل المتأهلين للخلافة في الأرض وبدونه يفقدون صلاحيتهم للاستخلاف هذا ما يدل عليه المعنى العام للآيات.

وإذا تجاوزنا معنى هذه الآيات في هذا المقطع من القصة إلى جو سورة البقرة بشكل عام، وجدنا أن هذه السورة : جاءت بغرض إثبات أن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وبعثته وأمته، كانت جميعا إيذانا بنقل الخلافة من بني إسرائيل

١البقرة، الآيات ٣٠-٣٣.

. قوم موسى . إلى أمة الإسلام، أمة محمد.. والسبب أن اليهود ضيعوا العلم وكتموا الحق ولبسوه بالباطل واستبدلوا العلم بالأهواء، وهذه المعاني . المتناغمة تماما مع مقطع قصة آدم في هذه السورة . فُصّلَت تفصيلا في ثنايا آيات سورة البقرة، ومَثَّلت محورا دارت عليه مقاصدها وأغراضها، وكلامنا هذا تشهد له آيات السورة الكريمة، ويكاد جمهور العلماء المعاصرين يتفقون على أن محور السورة هو: الخلافة في الأرض مقوماتها وأهلها [١]

ضيع بنو إسرائيل العلم فكان لزاما أن يضيعوا الخلافة والشهادة على الناس، ولنتدبر قوله تعالى في هذه السورة: "ولئن اتبعت أهواءهم من بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير "[٢]وقوله عز وجل "ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين" [٣]

وحين أراد الله أن ينقل الخلافة إلى الأميين، بعث فيهم رسولا يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون " كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلوا عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون"[٤]

ثم نرى في ذات السورة أن بني إسرائيل لما قالوا لنبي لهم "ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله" وأجابهم نبيهم " إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا" واعترضوا بقولهم "أنى له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه" فكان جواب النبي "إن الله

---

١ ينظر: التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، إعداد نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، إشراف مصطفى مسلم، جامعة الشارقة، ٢٠١٠م، المجلد١ ص ٢٧.

٢ البقرة، الآية ١٢٠.

٣ البقرة، الآية ١٤٥.

٤ البقرة، الآية ١٥١.

اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم"[١]

إذن سر اختياره هو بسطة في العلم والجسم، والذي اصطفاه هو الله الواسع العليم.. وهو الربط القرآني المطرد بين الخلافة والعلم في هذه السورة.

وتعقيبا على القصة يقول تعالى: "فهزموهم بإذن الله وقتل داوود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء.[٢]

ثانيا: الخلاصة:

ولعل هذا القدر كاف لإدراك سر تفرد السورة بهذا المقطع من قصة آدم وما في ذلك من التناسب الرائع بين ذلك المقطع وبين جو السورة ومحورها: تساءلت الملائكة عن سر استخلاف آدم فكان جواب القرآن: العلم.. وفي السورة أمة ورثت علم الأنبياء ففضلها الله بخلافته على علم على العالمين (وهم اليهود)، ثم ضيعت العلم واتبعت الأهواء فاستبدلها الله بأمة محمد عليه الصلاة والسلام التي أرسل فيها النبي يعلمها الكتاب والحكمة. واصطفى الله سبحانه طالوت على بني إسرائيل وبررت السورة ذلك الاصطفاء بما له من بسطة في العلم، ثم استخلف داوود " يا دوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله"[٣] آتاه الحكمة وعلمه مما يشاء وأمره أن يحكم بالحق أي بالعدل القائم على العلم بما أنزل الله إليه.. من أجل هذا الجو وهذا التناغم مع مقصد السورة اختصت سورة البقرة بهذا المقطع من قصة آدم الذي يمكن عنونته بعنوان كلي هو: مشهد الخلافة والعلم في قصة آدم.. ولم يرد هذا المشهد في غيرها في غيرها.

---

١ البقرة، الآية ٢٤٦.

٢ البقرة، الآية ٢٥١.

٣ سورة ص، الآية ٢٦

المسألة الثانية: تفرد القصة في سورة الأعراف: التدبر والخلاصة.

أولا: التدبر

إذا انتقلنا متتبعين ترتيب المصحف إلى سورة الأعراف وهي تتحدث عن ذات القصة لكن في لون آخر، قال تعالى: "ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين، فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين، وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين، فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين".[١]

وهذا المقطع أيضا اختصت به سورة الأعراف دون غيرها، وسيتبين لنا أنه يتسق تماما مع جو السورة والقيم التي تريد بناءها، وتتناسب بشكل ممتاز ودقيق مع الآيات التي تليها والتي قبلها.

وبيان ذلك أن الشيطان مع ما كان يكن لآدم وزوجه من العداء فإنه جاء إليهما كما بينت السورة في ثوب الناصح الأمين وقال لهما "ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين" وهكذا خدع آدم وزوجه واغترا بنصح خادع نزع به إبليس عنهما لباسهما وخلع عنهما كرامتهما التي رفعهما الله بها. فلماذا خص هذا المقطع بالحديث عن النصح وعن نزع اللباس وهتك الستر؟

الجواب الذي لاح لنا هو أن هذه الآيات ممهدة لما يليها من قوله تعالى " قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير ذلك من

---

١ الأعراف، الآية: من ١٩ إلى ٢٢.

آيات الله لعلهم يذكرون، يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما ما ووري عنهما من سوءاتهما "[١]

روى الإمام الطبري عن ابن نجيح عن مجاهد أنه قال في قوله تعالى " قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم.." كانت قريش تطوف عراة لا يلبس أحدهم ثوبا طاف فيه، وقد كان ناس من العرب يطوفون بالبيت عراة" فأمروا باللباس، وقال في تأويل الآية " خذوا زينتكم عند كل مسجد.." "يعني به قريشا لتركهم الثياب في الطواف" قال الإمام الطبري رحمه الله: قل يا محمد لهؤلاء الجهلة من العرب الذين يتعروا عند طوافهم بالبيت ويحرمون على أنفسهم ما أحللت لهم، من حرم عليكم أيها الناس زينة الله التي خلقها لعباده أن تتزينوا بها وتتجملوا بلباسها.[٢] "

من هنا يتضح تناغم هذا المقطع مع جو السورة ونظامها فما حصل مع آدم وحواء من نزع اللباس بداعي النصح من الشيطان طمعا في أن يكونا ملكين أو يكونا من الخالدين تكرر مع المشركين فنزع الشيطان عنهم لباسهم بداعي العبادة والطواف بالبيت، وهذه القصة ما تزال مستمرة مع بني آدم ينزع عنهم لباسهم ويكشف عوراتهم بداعي التقدم والحضارة.. كل هذا في قالب من النصح الكاذب والتظاهر بالحرص على مصلحة العباد..

ولننظر في المعنى الثاني الشيطان الناصح الأمين؟؟ .. والقصة كما سبق، ذكرت في سبع سور لم يرد في أي منها أن الشيطان يتظاهر بكونه الناصح إلا في سورة الأعراف، يقول الله تعالى " وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين" وإن ذلك لمن الروعة في البلاغة والتناسب والنظام إذ جو السورة كلها يتكرر فيه

---

١ الأعراف، الآية: من ٢٦ إلى ٢٧.

٢ ينظر: تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، المجلد الثالث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م ، ج٣ ص ٤٢٧-٤٢٨.

معنى النصح ولفظه كما لم يقع في أي سورة أخرى من سور القرآن ومقصود السورة كما ظهر لنا هو تبيين النصح الحقيقي وهو نصح الله ونصح أنبيائه للناس، من النصح الخادع وهو نصح إبليس لآدم وذريته من بعده.. ولنقرأ هذه الآيات في السورة نفسها:

قال نوح لقومه: " يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله ما لا تعلمون."[١]

ثم قال هود لقومه: "يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين."[٢]

ثم قال صالح لقومه: "يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين".[٣]

ثم قال شعيب لقومه: "يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين".[٤]

ثم جاءت الخاتمة في شأن نصح النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم لقومه وإنذارهم "أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة إن هو إلا نذير مبين" ولا ريب أن الإنذار يكون بدافع النصح وهكذا كان الأنبياء بين ناصح أمين ونذير مبين وهما معنيان لغرض واحد.

ثم إن التحذيرات الإلهية جاءت في هذه السورة بأسلوب من النصح، كما في هذه الآيات: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون، أفأمن أهل القرى أن يأتيهم

---

١ الأعراف الآية ٦١ ، ٦٢.

٢ الأعراف، الآية ٦٧، ٦٨.

٣ الأعراف، الآية ٧٩.

٤ الأعراف ، الآية ٩٣.

بأسنا بياتا وهم نائمون، أو أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون، أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون."[١]

ثانيا الخلاصة:

وهكذا نرى كخلاصة كيف صيغت السورة في قالب من النصح، وتلك ميزة من ميزات نظام هذه السورة لا توجد في غيرها. فلما ذكر الله قصة آدم وإبليس في هذه السورة، جعل النصح فيها كلمة مفتاحية، فوضع النصح الخادع بجانب النصح الأمين وبضدها تتميز الأشياء، وبهذا التناسب من قبيل التضاد تتضح الهداية للناس.

تبين لنا كيف لونت هذه السورة ـ كل سورة من القرآن ـ تلون القصة نفسها بلونها ونظامها، وتسلكها في نسيجها، فجو السورة يعين على فهم جو القصة وجو القصة يعين على اكتشاف جو السورة، والكل في تناغم بديع معجز، إيقاعا ومبنى ومعنى .. إنه الكمال الذي يدل على أن القرآن كلام الله ما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون.

ولننظر في القصة ذاتها وما تميزت به في سورة الحجر.

المسألة الثالثة : تفرد القصة في سورة الحجر: التدبر والخلاصة.

أولا التدبر:

وردت القصة في قوله تعالى: "وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين، قال لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حمإ مسنون، قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين، قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من

---

١ الأعراف من الآية ٩٦ إلى ٩٩.

المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم، قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين".[١]

بتدبر هذه الآيات نجد السجود لفظا ومعنى طاغيا عليها، فلم يتكرر السجود بلفظه في أية سورة كما تكرر في هذه الآيات، خمس مرات وبمختلف الصيغ (ساجدين، فسجد، الساجدين، لأسجد) وما سبق هذه الآيات هو حديث عن السماوات والأرض وسنة الله في التاريخ بما يدل بوضوح أن الكون كله خاضع لله ساجد تحت عظمة قدرته خاضع لنظامه ونواميسه وسننه.

ويعقب ذكر القصة في هذه السورة حديثها عن قصص قوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب الأيكة وأصحاب الحجر بما يبين عاقبة فسادهم وغرورهم، وبأنها كانت خسفا وتدميرا، وأن العاقبة لله ولا يقف في طريقها شيء والكل خاضع للجبار طوعا أو كرها ساجد تحت عظمة سلطانه.. ولنقرأ قوله تعالى: "وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين[٢] ، "فأخذتهم الصيحة مشرقين، فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل"[٣] ، "فانتقمنا منهم وإنهم لبإمام مبين"[٤] ، "فأخذتهم الصيحة مصبحين"[٥]

ثم يوجه خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم ينتهي بآخر آية في هذه السورة " فسبح بحمد ربك وكن مع الساجدين، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين" فطابع السورة كلها السجود لله رب العالمين.

---

١ الحجر، من الآية ٢٨ إلى ٤٠.

٢ الحجر، الآية ٦٦.

٣ الحجر، الآية ٧٤،٧٣.

٤ الحجر، الآية ٧٩ .

٥ الحجر، الآية ٨٣.

ثانيا الخلاصة:

ما أجل هذا التناغم بين أسلوب القصة وجو السورة. الخلاصة أن عنوان القصة سجود وعنوان السورة سجود، فالسورة أتت على معاني السجود والخضوع لله رب العالمين عبادا وعبيدا له سبحانه، بالرضا وبالكره، الكل خاضع له وحده، وغرض القصة في هذا الموضع يذكر آدم وذريته أن يكونوا ساجدين لله طوعا كما هم خاضعون له كرها، وفي هدا التناسق تظهر عظمة الإعجاز.

المسألة الرابعة :تفرد القصة في سورة الإسراء:التدبر والخلاصة.

أولا: التدبر

مرة أخرى ومع نفس القصة، ولكن: كأنها هي.. !! إنها منكّرة كعرش بلقيس، مصقولة في قالب مختلف، مسلوكة في نظام آخر، ولنتدبر هذه الآيات: " وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا، قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتني إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا، قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا، واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا، إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا"[١] آ ٦١-٦٥.

أسلوب القصة في هذه السورة كله ترهيب واستفزاز فهل هو متلائم مع جو السورة ومقصودها؟

نتدبر السورة فنلاحظ أولا أن كلمة الاستفزاز لم تستعمل في القرآن مطلقا إلا في هذه السورة !!

---

١ الإسراء، من الآية ٦١ إلى ٦٥.

وإذا أردنا معرفة مدى التلاؤم بين أسلوب القصة وجو السورة فلنتدبر الآيات التي ورد فيها لفظ الاستفزاز:

"وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلفك إلا قليلا/ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا".[١]

"ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فاسأل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا، قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورا، فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعا".[٢]

ما أشبه هذه الآيات بآيات قصة آدم وإبليس التي تلوناها في هذه السورة: "واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا".[٣]

لفظ الاستفزاز إذن لفظ مفتاحي في نظام السورة، استعمل ثلاث مرات في القرآن، وكلها في هذه سورة الإسراء.

جاء هذا الاستعمال القرآني مرة في حق قصة آدم وإبليس، ومرة في شأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وقومه من قريش، والمرة الثالثة بين النبي موسى وعدو الله فرعون، يقال للجميع الحقيقة واحدة والصور مختلفة.

ثانيا: الخلاصة

الحقيقة التي تربط بين معنى اللفظة في القصة وفي السورة أن الله تعالى ذكره ينبه نبيه محمدا عليه الصلاة والسلام أن أسلوب الاستفزاز والترهيب لمن

---

١ الإسراء الآية ٧٦، ٧٧.

٢ الإسراء، من الآية ١٠١ إلى ١٠٣.

٣ الإسراء ، الآية ٦٤.

لا يملكون الحجة وتضيق صدورهم بالحق وأهله ليس جديدا فما تواجهه من قريش، هو ما حدث مع أبيك آدم ثم مع أخيك موسى.. !!

فما أروع توظيف القرآن للكلمات أفليس هذا من إعجاز بلاغة القرآن، هل هذا من قبيل المصادفة؟ أم هو النظام الدقيق لسور القرآن يبهر الألباب في بلاغة أسلوبه وفصاحة ألفاظه ودقة معانيه؟ إن القرآن لا يقص القصص من أجل التسالي والسمر، بل من أجل بناء العقائد والتصورات والأفكار والقيم وبالأسلوب المناسب، وقد تبين أن لكل مقام في القرآن مقال يناسبه.

المسألة الخامسة: تفرد القصة في سورة الكهف التدبر والخلاصة

أولا: التدبر:

قال تعالى في سورة الكهف : "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بيس للظالمين بدلا".[١]

تكشف هذه السورة لأول مرة أن إبليس كان من الجن، وإلا فالسور الست الأخرى سكتت عن هذا الموضوع. وجاء في هذه السورة النهي عن اتخاذه وذريته شركاء لله وأولياء من دون الله ، فهل لهذا البيان صلة بمضمون السورة ومقصودها؟

ويجيء الجواب سريعا واضحا، يدور محور سورة الكهف على إثبات التوحيد ونفي الشريك عن الله ولنذكر أولا أن القصة جاءت في ذات السياق "أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو"؟

ولنتدبر هذه الآيات:

في مطلع السورة : "وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولدا، ما لهم به من علم ولا لآبائهم كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا" (١).

---

١ الكهف، الآية ٥٠.

ثم في ثنايا السورة من قبل ورود القصة يقول سبحانه : "هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة لولا يأتون عليهم بسلطان بين فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا" (٢).

ثم قوله تعالى :"أبصر به وأسمع ما لهم من دونه من ولي ولا يشرك في حكمه أحدا، واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته ولن تجد من دونه ملتحدا" (٣).

ثم نقرأ قوله سبحانه قبل ورود القصة أيضا : "فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا، ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا، هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا" (٤).

بعد هذه الآيات تأتي آية قصة آدم "فقلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ألا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بيس للظالمين بدلا "(٥)

ثم في ثنايا السورة عقب القصة: "ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم فدعوهم فلم يستجيبوا لهم وجعلنا بينهم موبقا" (٦).

ثم نقرأ قوله تعالى: "أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلا" (٧)

---

١)الكهف، الآية ٤، ٥ .

٢)الكهف الآية ١٥.

٣)الكهف ، الآية ٢٦، ٢٧ .

٤) الكهف من الآية ٤٢ إلى ٤٤.

٥) الكهف الآية ٥٠.

٦)الكهف الآية ٥٢.

٧) الكهف ، الآية ١٠٢ .

وفي خاتمة السورة: "قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا".

إذن واضح من تسلسل هذه الآيات وتغلغلها في كامل السورة، أن محور السورة وعمودها الفقري، وجوها الغامر وما سيقت له من مقصد، كل ذلك إنما هو التوحيد ونفي الشركاء عن الله. فهي حملة جارفة على من قالوا: اتخذ الله ولدا، وعلى من اتخذوا من دونه أولياء .!!

ثانيا: الخلاصة

والآن لنتذكر مرة أخرى أسلوب القصة كما هي في هذه السورة "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بيس للظالمين بدلا، ما أشهدتهم خلق السماوات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضدا" (١).

صرحت الآيات لأول مرة أن إبليس كان من الجن، وذلك لأن العرب المشركون كانوا يعبدون الجن، وكانوا يقولون ـ زورا ـ إنهم ولد الله وشريكه في الملك، فنبهت القصة والسورة إلى بطلان هذا القول وأن الذين تتخذونهم شركاء لله من الجن إنما هم إبليس وذريته، أعداؤكم وأعداء أبيكم آدم، فهل نسيتم المنعم عليكم وتوليتم أعداءكم؟ وهل هناك سفاهة أعظم من أن يقرب المرء عدوه ويتنكر لولي نعمته؟

ولا شك أن كل ذي بصيرة يكون قد أدرك لم جاءت القصة في سورة الكهف بهذا الأسلوب وبهذه المعاني ولم صبت في هذا القالب البليغ؟.. ويكون قد أدرك دقة نظام القرآن وعمقه وكمال إعجازه من خلال التناسق البديع بين القصة والسورة.

---

١) الكهف ، الآية ٥١،٥٠ .

والموضع التالي للقصة حسب ترتيب التلاوة جاء في سورة طه فما مقصد القصة في ضوء جو سورة طه ومقصدها.

المسألة السادسة:تفرد القصة في سورة طه: التدبر والخلاصة

أولا: التدبر:

قال تعالى في سورة طه في شأن قصة آدم وعدوه إبليس: "وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى، فقلنا يا آدم أن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى، إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى، وأنك لا تضمأ فيها ولا تضحى، فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى، قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى،" [١].

الملاحظ عند تدبر الآيات أن القصة سيقت كشاهد على ضعف العزيمة لدى الإنسان، فالسياق قبل بدء القصة جاء فيه: "ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا.."[٢].

وقد نبه الله آدم إلى عدوه "فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى" وهو تنبيه واضح صريح بأسلوب مكشوف تفردت به هذه السورة.

لكن هذا الإنذار لم يغن عن آدم شيئا، فإن ضعف العزيمة قهره وأوقعه في حبائل الشيطان، لذا استحق آدم عتابا ساخنا: "وعصى آدم ربه فغوى" وهذا التصريح بمعصية آدم وغوايته أيضا تفردت به هذه السورة.

---

١) طه، من الآية ١١٦، إلى ١٣٢.

٢) طه، الآية ١١٥ .

أكرم الله آدم وأغدقه النعم، ثم عرّفه عدوه وحذره منه، ومع ذلك ضعف عزمه وقل صبره فنسي وعصى..هذه قصة أبي البشر آدم عليه السلام، ثم هي من بعده قصة كل إنسان في كل زمان وكل مكان.. !!

ولنعرف التناسب بين هذا الأسلوب وجو السورة ومقصودها، نتدبر الحديث في السورة عن بني إسرائيل الذين أكرموا كما أكرم أبوهم آدم، وأنذروا كما أنذر آدم، ثم وقع منهم أشد مما وقع من آدم قال تعالى: "يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطور الأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى" [١].

فلما ذهب موسى لميقات ربه فوجئ بهذا النبإ الفضيع "قال فإنا قد فتنا قومك من بعدك وأضلهم السامري" فرجع موسى إلى قومه بالملامة والتعنيف على خور عزيمتهم، وسرعة نكوصهم، وقلة صبرهم، قال: "يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدي"[٢].

ما أشبه الليلة بالبارحة. !! فهل يجد المتدبر فارقا بين ما جرى لأمة موسى مع السامري، وما جرى لآدم مع إبليس؟.. حتى جرس القرآن في التعبير ووقعه واحد "وعصى آدم ربه فغوى".." ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى". هذا المعنى الأول.

وأما المعنى الثاني الذي يربط أسلوب القصة بجو السورة ومقصدها ومساقها، فهو ما نعرفه من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد أظهر رغبته القوية في نزول القرآن في أسرع وقت، كي يروي عطشه ويثلج صدره

---

١) طه، الآية ٨١،٨٠ .

٢) طه، الآية ٨٦ .

من غدق الوحي الأعلى، ولم تستجب حكمة الله لذلك التطلع رفقا بالنبي الكريم، ونظرا لعدم تحمل عزيمة الإنسان من حيث هو إنسان لذلك، ومخافة أن يقع له ما وقع لأبينا آدم فيشقى، فقال تعالى: " ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدني علما، ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما"..هذا المعنى الثاني يزيده الذي بعده وضوحا.

ذلك هو المعنى الثالث في أسلوب القصة الذي يربطنا بنظام السورة ومقصدها إذ يقول الله جل ثناؤه في مطلع السورة : "طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى" ثم قال في ثنايا القصة: "إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى" ، ثم قال تعالى في نهاية السورة : "فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى" فلم يتكرر لفظ الشقاء في هذه السورة على هذه الشاكلة العجيبة، من مطلع السورة إلى أوسطها إلى نهايتها؟ .. لا شك أن ضعف العزيمة يؤدي إلى الشقاء مآلا، وعزيمة النبي لا تقوى على حمل القرآن جملة واحدة، ولم ينزل الله عليه القرآن ليشقى، فمن الحكمة إذن أن ينزل القرآن مفرقا ليؤدي رسالته الحضارية كاملة غير منقوصة.

ثانيا: الخلاصة

و بالنتيجة فالعبرة كانت بأن عزم آدم ضعف من قبل فشقي، وضعف عزم بني إسرائيل فشقوا.. وفي هذا تذكير لك ولأمتك يا محمد بهذا الدرس العظيم المتكرر، فلا داء كالغفلة والنسيان ولا معضلة كالعجلة التي تورد الشقاء .. أليس في هذا شاهد على أن هناك رباطا وثيقا بين القصة، بالأسلوب الذي وردت به، وبين مطلع السورة وموضوعها وسياقها العام ومقصدها، وفي نظام بليغ بديع معجز؟.. بلى.

فما شأن قصة آدم في الموضع السابع من القرآن أي في سياق سورة ص

المسألة السابعة: تفرد القصة في سورة ص: التدبر والخلاصة

أولا: التدبر

تجيء القصة في سورة ص مرتدية رداء فضفاضا من العزة والكبرياء والجبروت، ولنتدبر هذه الآيات:

"إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين ، فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين، فسجد الملائكة كلهم أجمعون، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين، قال فاخرج منها فإنك رجيم، وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين، قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون، قال فإنك من المنظرين، إلى يوم الوقت المعلوم، قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين، قال فالحق والحق أقول، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين"(١).

لنتدبر في أوجه التناسب بين القصة كما ذكرتها سورة ص وبين السورة ككل في جوها ونظامها ومقاصدها.

موقع القصة جاء في آخر السورة ليربط آخرها بأولها ولنتدبر التناسب البليغ بين قول إبليس "أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين" وقول طواغيت قريش "أأنزل عليه الذكر من بيننا"وهو نظير قولهم : " لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم".

ثم في معرض القصة يقول الله تعالى لإبليس وقد رفض السجود "يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين" لم يقل له ما منعك أن تسجد لآدم بل: لما خلقت بيدي فعبر القرآن عن آدم بهذا التعبير لأن ظاهر الامتناع هو تكبر جنس على جنس، لكن حقيقته تكبر

---

١) سورة ص، الآية من ٧١ إل ٨٥ .

الخلق أمام الخالق، واستكبار العبد على الرب، وهو تمرد على الله وعلى أمر الله..

والوضع نفسه كان قائما بين محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكبراء قريش، وهو الموضوع الذي تناولته بداية السورة، فإن مخالفتهم، ظاهرها مخالفة شخص لشخص، ولكن حقيقتها كانت تحديا صارخا لمليك هذا الكون، لذا قال عنهم الله.. "أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب، أم لهم ملك السماوات والأرض فليرتقوا في الأسباب" .[١]

ونرى في القصة من عزة الله وجبروته واستغنائه ما يرجف أمامه القلب خيفة ومهابة "قال فالحقُ والحقَ أقول، لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين"

ومن ياترى أتباع الشيطان هؤلاء؟ إنهم أولئك الطغاة الذين حكا الله موقفهم من رسالة محمد عليه الصلاة والسلام بداية السورة: "وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق"

يتواصى هؤلاء بالعناد والتكبر والتصبر وعدم التنازل عن شركهم بالله ومحاربتهم لرسوله مهما حصل، فيردهم الله إلى حجمهم الطبيعي حين يقول لإبليس ولهم معه: "لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين."

ثانيا: الخلاصة

إذن الكلمة المفتاحية هنا في القصة والسورة على حد سواء هي الاستكبار والعلو، ولنتأمل هذه التعابير القرآنية في هذا المقطع: "إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين" "أستكبرت أم كنت من العالين" "أنا خير منه" "لأغوينهم أجمعين"هذا عن تكبر إبليس الفارغ، أما كبرياء الله الحق ففي قوله تعالى

---

١ سورة ص، الآية ٩، ١٠ .

"فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين" " قال فالحقُ والحقَ أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين"..

وهكذا يرتبط مطلع السورة بخاتمتها في جو من التقابل بين كبرياء زائف من مخلوق ضعيف هو إبليس ومن تبعه كطغاة قريش، وكبرياء حقيقي من الله عز وجل ومن أعزهم من الأنبياء والمؤمنين.. وفي ثنايا السورة حث للرسول على الصبر على الأذى فإن حبل الزيف قصير، وبيان لعاقبة المؤمنين السعيدة والنكال بهؤلاء المتجبرين المتلاومين في جهنم حيث لا ينفع الندم كما بينت ذلك سورة ص.. وبهذا اللون تلونت القصة والسورة معا.

الخاتمة:

ختاما، فإن التعريج على مقاصد القرآن العظيم، وبخاصة مقاصد السور، ومحاولة التطبيق والإسقاط على موضوعات القرآن الكريم تستنبط منه فوائد جمة، وتعرف به أسرار عظيمة لإعجاز القرآن وأغراضه.

وتدبر مقطع هذه القصة في طول القرآن وعرضه قد بين لنا فعلا أن العلم بمقاصد السور له أثر بالغ في فهم القرآن العظيم وتذوق بلاغته وإدراك إعجازه، فالكلمة المفتاحية المرتبطة بالقصة في سورة البقرة كانت: العلم والاستخلاف وفي سورة الأعراف كانت: النصح الأمين والنصح الخادع، وفي سورة الحجر كانت: سجود الكون كله لله طوعا وقهرا، وفي سورة الإسراء كانت الاستفزاز والتخويف، وفي سورة الكهف كانت: التوحيد ونفي الشريك، وفي سورة طه كانت ضعف العزم والشقاء، وفي سورة ص كانت الاستكبار والعلو.

وبعد فهل يكفي القول بأن الغرض من تكرار القصص في القرآن هو مجرد التأكيد والمبالغة في التذكير؟ الحق أن تكرار القصص في القرآن له وظيفة خاصة وله دلالات وإيحاءات، إنه يدل على إعجاز البلاغة القرآنية في صوغ القصص وتلوينه بلون السورة التي ينتظم في عقدها، وتلتحم مقاصده بمقاصدها في تناسب بين المقام والأسلوب والمعنى. ويمكن القول: إن إدراك مقاصد السورة يمكّن من إدراك مقاصد القصة، وفهم مرامي القصة يساعد على إدراك مقاصد السورة ونظامها المعجز.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- إمعان النظر في نظام الآي والسور، محمد عناية الله السبحاني، دار عمار الأردن.

٣- البرهان في علوم القرآن، بدر الدين الزركشي، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٦م.

٤- التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٥- تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل، محمد الغزالي، دار الشروق، الطبعة الرابعة،١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٦- تطور المقاصد عند العلماء المعاصرين، مدارسة مع طه جابر العلواني، رقية العلواني.

٧- تفسير سورة الأنعام، طه جابر العلواني، دار السلام، القاهرة، جمهورية مصر العربية ٢٠٠٨م.

٨- تفسير القرآن الحكيم، المشهور باسم: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار الفكر، بيروت.

٩- تفسير الطبري من كتابه جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير الطبري، المجلد الثالث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٩٤م.

١٠- التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، نخبة من علماء التفسير وعلوم القرآن، إشراف مصطفى مسلم، جامعة الشارقة.

١١- جهود الأمة في خدمة مقاصد القرآن، (ضمن أعمال المؤتمر العالمي الأول للباحثين في علوم القرآن)، أحمد الريسوني.

١٢- جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ١٩٨٦م.

١٣- دلائل النظام، عبد الحميد الفراهي،الدار الحميدية، ١٣٨٠هـ.

١٤- قواعد الأحكام في مصالح الأنام، العز بن عبد السلام، دار القلم، دمشق، ٢٠٠٠م.

١٥- كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي، مدارسة مع عمر عبيد حسنة، نهضة مصر، الجيزة، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٦م.

١٦- المحاور الخمسة للقرآن الكريم، محمد الغزالي، دار القلم ،دمشق، الطبعة الثالثة،٢٠٠٠م.

١٧- معالم التنزيل في تفسير القرآن، الإمام البغوي، دار إحياء التراث، بيروت، لبنان.

١٨- مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، برهان الدين البقاعي، تحقيق عبد السميع محمد أحمد حسنين، مكتبة العارف، الرياض، السعودية.

١٩- مقاصد المقاصد، الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، أحمد الريسوني، الشركة العربية للأبحاث والنشر بيروت، لبنان.

٢٠- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٢م.

٢١- منهج الشيخ محمد الغزالي في التعامل مع القرآن، يونس عمر ملال، أطروحة دكتوراه مكتبة جامعة الجزائر.

٢٢- النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم،محمد عبد الله دراز، دار القلم القاهرة، الطبعة العاشرة، ٢٠٠٨م.

٢٣- نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، محمد الغزالي،دار الشروق، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٠م.

٢٤- نظام القرآن، عبد الحميد الفراهي، تقديم سليمان الندوي، طبعة الدار الحميدية.

٢٥- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، برهان الدين البقاعي، الدار السلفية للطباعة والنشر.

٢٦- الوحي المحمدي، ثبوت النبوة بالقرآن، رشيد رضا، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ١٤٠٦ هـ .